فكك الحزمة

إذا كان الخطأ واقعاً من مجموعة .. فالأصل أن تنصحهم وهم مجتمعون.. ولكن قد تحتاج أحياناً أن تفكك الحزمة.. أعني.. أن تكلم كل واحد على حدة.. وتنصحه.. مثال: مررت بمجلس منزلكم.. وسمعت أخاك يتحدث مع أصدقائه – وكانوا ضيوفاً عنده– ويخططون أن يسافروا إلى بلد كذا.. وهذا البلد لا يسلم من يذهب إليه غالباً من التعرض للمحرمات الكبار.. أردت أن تنصح.. لكن.. كيف؟!

من الأساليب أن تدخل عليهم وتنصحهم بكلمتين.. وتخرج.. لكن نتيجة ذلك قد لا تكون ناجحة كثيراً.. فما رأيك أن تفك الحزمة.. وتكسر كل عود على حدة.. كيف؟!

إذا تفرقوا اجلس مع من تظنه أعقلهم.. وقُلْ: يا فلان.. بلغني أنكم ستسافرون.. وأنت أعقلهم.. وتعلم أن هذا البلد لا يسلم المسافر إليه من البلايا والفتن.. وقد يعود مريضاً أو مُبتلى.. فما رأيك أن تكسب أجرهم.. وتقترح عليهم أن يسافروا إلى بلد آخر.. تستمتعون فيه بالأنهار والبحار.. واللعب والأنس .. من غير معصية..

لا شك أنه إذا سمع منك هذا الكلام بالأسلوب الحسن.. سيقل حماسه إلى النصف.. اذهب إلى آخر.. وقُل له مثل ذلك.. ثم قُل للثالث مثله.. دون أن يشعر كل منهم بحديثك لصاحبه.. فتجد أنهم إذا اجتمعوا.. وتشجَّع أحدهم واقترح تغيير البلد.. وجد من يعاونه.. وتكون قضيت على المنكر بأسلوب مناسب..

أو لو اكتشفت يوماً أن أولادك يجتمعون في غرفة أحدهم.. وينظرون إلى شريط فيديو خليع.. أو مقاطع (بلوتوث) فيها صور خليعة.. أو نحو ذلك.. فقد يكون من المناسب أن تنصح كلاً منهم على حدة.. لكيلا تأخذهم العزة بالإثم..

هل لهذا شاهد من السيرة؟ نعم..

لما اشتد الخلاف بين رسول الله ﷺ وبين قريش.. اجتمعت قريش وقاطعت النبي وجميع أقاربه من بني هاشم.. وكتبت صحيفة أن بني هاشم لا يُشترى منهم.. ولا يُباع لهم.. ولا يُزوَّجون .. ولا يُتزوَّج منهم..

وحُبس النبي ﷺ مع أصحابه في وادٍ غير ذي زرع.. واشتدت الكربة على الصحابة حتى أكلوا الشجر.. بل مضى أحدهم يوماً ليبول.. فسمع صوتاً تحته.. فنظر فإذا قطعة من جلد بعير.. فأخذها.. وغسلها وشواها بالنار.. ثم فتّتَها.. وخلطها بالماء.. وجعل يتموَّن بها ثلاثة أيام!!

ومضت الشهور عصيبة على بني هاشم والمسلمين فقال ﷺ يوماً لعمه أبي طالب - وكان محبوساً معهم في الشعب-:

- يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش.. فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها.. ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان..

أي إن دابة الأرضة أكلت صحيفة قريش فلم يبق منها إلا عبارة: «باسمك اللهم»!!

- فعجب أبو طالب وقال: أَربُّكَ أخبرك بهذا؟
- قال: نعم..
- قال: فوالله ما يدخل عليك أحد .. حتى أخبرَ قريشاً بذلك..

ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش.. إن ابن أخي قد اخبرني بكذا وكذا.. فهلمَّ صحيفتكم.. فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عنها وإن كان كاذباً.. دفعت إليكم ابن أخي فافعلوا به ما شئتم..

فقال القوم: قد رضينا.. فتعاقدوا على ذلك..

ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ.. فزادهم ذلك شراً.. وظل بنو هاشم وبنو المطلب في واديهم.. حتى كادوا أن يهلكوا..

وكان من كفار قريش رجال رحماء.. منهم: (هشام بن عمرو) .. وكان ذا شرف في قومه.. فكان يأتي بالبعير قد حمّله طعاماً.. وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً.. حتى إذا بلغ به فَمَ الشِعب.. خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فدخل الشعب عليهم..

ومضت الأيام ورأى (هشام).. أنه لا طاقة له بإطعامهم كل ليلة.. وهم كثير.. فقرر أن يسعى لنقض الصحيفة الظالمة.. ولكن أنىّ له ذلك وقريش قد أجمعت عليها.. فاتبع أسلوب تفكيك الحزمة.. فماذا فعل؟

مشى إلى (زهير بن أبي أمية).. وكانت أمه (عاتكة بنت عبد المطلب).. فقال:

- يا (زهير) أرضيت أنت تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء.. وأخوالك حيث علمت؟ لا يُباع لهم ولا يُبتَاع منهم.. ولا يُنكَّحُون ولا يُنكحُ إليهم؟! أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال (أبي الحكم بن هشام).. – يعني أبا جهل- وكان أشدهم عداوة للمؤمنين وتعصباً للمقاطعة – ما تركهم على هذا الحال..
- قال (زهير): ويحك يا (هشام).. فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها..
- قال (هشام): قد وجدت رجلاً..
- قال: من هو؟
- قال: أنا..
- قال (زهير): أبغنا ثالثاً

- قال (هشام): فاكتم عني ..

فذهب إلى (المطعم بن عُدي).. وكان رجلاً عاقلاً..

- فقال له: يا مطعم .. أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف.. وأنت شاهد على ذلك.. موافق لقريش فيه؟!
- قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد..
- قال: وجدت لك ثانياً..
- قال: من؟
- قال: أنا..
- قال: أبغنا ثالثاً.
- قال: قد فعلت..
- قال: من هو؟
- قال: (زهير بن أبي أمية..)
- قال: أبغنا رابعاً..
- قال: فاكتم عني..

فذهب إلى (أبي البختري بن هشام).. فقال له ما قال لصاحبيه.. فتحمس لذلك..

- وقال: وهل تجد أحداً يعين على هذا؟
- قال: نعم..

- قال: من هو؟
- قال: (زهير بن أبي أمية) و(المُطعم بن عُدي) وأنا معك..
- قال: أبغنا خامساً..

فذهب (هشام) إلى (زمعة بن الأسود).. فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم..

- فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟
- قال: نعم.. فلان وفلان..

فاتفقوا جميعاً على هذا الرأي.. وتواعدوا عند (حطم الحجون) ليلاً بأعلى مكة..

فاجتمعوا هنالك.. وأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها.. وقال (زهير): أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.. ثم تقوموا أنتم فتتكلمون..

فلما أصبحوا غدوا إلى مجالسهم حول الكعبة.. حيث يجتمع الناس ويتبايعون.. وغدا (زهير بن أبي أمية) عليه حُلّة.. فطاف بالبيت سبعاً .. ثم أقبل على الناس وصرخ:

- يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب و(بنو هاشم) هلكى !! لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم..والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة..
- فصرخ (أبو جهل).. وكان في مجلس مع أصحابه.. قال: كذبت.. والله لا تُشق..
- فقام (زمعة بن الأسود) وصرخ: بل أنت والله أكذب.. ما رضينا كتابتها حين كتبت..

فالتفت إليه (أبو جهل) ليرد عليه..

- ففاجـأه (البختري) قائماً يقول: صدق زمعـة.. لا نرضى ما كُتب فيها ولا نقر به..

فالتفت (أبوجهل) إلى (البختري)..

- فـإذا بالمطعم بن عُدي يصرخ: صدقتمـا وكذب من قال غير ذلك.. نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها..

وقام (هشـام بن عمـرو) وقال مثـل قولهم..
فتحير (أبوجهل) .. وسكت هنية..

- ثـم قال: هـذا أمر قُضِـي بليل.. تشـوور فيه بغير هذا المكان..

ثـم انطلـق (المطعـم بـن عُـدي) إلى الكعبة.. وتوجـه إلى الصحيفـة ليشـقها.. فوجـد دابـة الأرضة قد أكلتها.. إلا باسمك اللهم..

جلد الذات!!

من الذكريات:

أنَّـا خرجنا مرة للبر.. وكان معنا (أبو خالد).. صديق لنا نظره ضعيف جداً.. كنـا نخدمه.. نقرب إليه المـاء.. التمر.. القهوة.. وهو يردد: لابد أن أسـاعدكم.. أريد أن أشتغل معكم.. كلفوني بأي عمل.. ونحن ننهاه عن ذلك..

ذبحنا شاة معنا.. وقطعناها ووضعناها في القدر.. تمهيداً لطبخها.. ولم نشعل النار بعد.. وانشغلنا بنصب الخيمة .. وترتيب الأغراض..

تحركـت الشـهامة في (أبي خالد) – ويـا ليتها لم تفعل – فقـام وتوجه إلى القدر.. فرأى اللحم.. فأدرك أن أول شـيء سنفعله هو أن نصب الماء على اللحم.. فتوجـه إلى الأغراض في السـيارة.. وجعـل يتلمس الأغراض.. مولـد كهرباء.. أسلاك.. مصابيح.. أربع مطارات بلاستيك فيها ماء.. وبنزين.. وأغراض أخرى..

التقط أقرب مطارة إليـه.. وأقبل بها مبتهجاً إلى القدر.. وأفرغ نصفها فيه .. لمحه أحدنا..

- فصرخ به.. لا..لا أبوخالد..
- وهو يردد: خلوني أشتغل.. خلوني..

فسـحبنا المطـارة منه فـوراً.. وغرقنـا في الضحك الـذي يغالبه البـكاء.. لأننا اكتشـفنا أنها مطارة البنزين.. وليست مطارة الماء.. !! وتغدينا على خبز وشاي.. لم تفسد الرحلة.. بل كانت من أمتع الرحلات..

ولماذا نعذب أنفسنا بأمر قد انتهى..

وأذكر أيضاً: لما كنت في الثانوية خرجت مع بعض الزملاء في رحلة.. تعطلت بطارية إحدى السيارات.. أقبلنا بسيارة أخرى وأوقفناها أمامها لنوصل ببطاريتها البطارية المتعطلة.. أقبل طارق ووقف بين السيارتين.. وشبّك الأسلاك في بطارية السيارة الأولى.. ثم شبّكها في البطارية المتعطلة .. ثم أشار لأحد الشباب.. شغل السيارة..

ركب صاحبنا.. وكان ناقل الحركة (القير) على رقم واحد.. فما إن شغل السيارة حتى قفزت السيارة إلى الأمام وصكت ركبتي طارق بين صدامي السيارتين..ووقع على الأرض مصاباً.. وصاحبنا في السيارة يردد: أشغل مرة ثانية؟!!

أبعدنا السيارتين.. وساعدنا طارق على المشي.. كان يعرج ويتألم من ركبتيه بشدة.. لكنه أعجبني أنه لم يزد ألمه بصراخ أو سبّ.. أو توبيخ.. بل ابتسم وأظهر الرضا.. وما فائدة الصراخ؟ والأمر قد انتهى.. وصاحبنا أدرك خطأه.. إذا أردت أن تستمتع بحياتك.. فاعمل بهذه القاعدة: لا تهتم بصغائر الأمور..

نحن أحياناً نعذب أنفسنا.. ونجلدها.. ونضيق ونتألم.. والألم لا يحل المشكلة.. افرض أنك: دخلت إلى حفل عرس.. وقد لبست ثوباً حسناً.. ووضعت فوق رأسك غترة وعقالاً.. حتى صرت أجمل من العريس!! وبدأت تصافح الناس واحداً واحداً.. وفجأة أقبل طفل من ورائك.. وتعلق بطرف غترتك.. وسحبها فسقطت الغترة والعقال.. والطاقية.. وصار شكلك مضحكاً.. كيف تتصرف؟

كثير منا يتعامل مع هذه المشكلة بأسلوب هو ليس حلاً لها.. يركض وراء الصغير.. يصرخ.. يسب.. يلعن.. والنتيجة: أنه حقق ما كان يريده الطفل من جذب انتباه.. وضجة .. وأضحك الناس عليه.. وربما صوره بعضهم وصار بلوتوثاً يتناقلونه..!! أنت هنا- حقيقة – لا تعذب الطفل إنما تعذب نفسك..

أو افـرض أنك.. لبسـت ثوباً جديداً.. ربما لم تسـدد قيمته بعـد .. وذهبت إلى شـركة لتقدم على وظيفة.. مررت بأحد الأبـواب كان مدهوناً بالطلاء للتو.. وبجانبـه لوحـة تحذيريـة لم تنتبه لها.. وفجأة مسـحت نصف الطـلاء بثوبك وطفق عامل الطلاء يصرخ بك ساباً غضباً.. كيف تتعامل مع هذه المشكلة؟

نحـن في كثـير من الأحيـان أيضـاً نتعامل معها بأسلوب ليس حلاً لها.. نثور.. نسب العامل.. لِمَ لَمْ تضع لوحة واضحة.. فيرد عليك بغضب.. وقـد تكـون النتيجـة أن تتلطخ بـتراب الأرض أكثر مما تلطخت بطلاء الباب!! على رسـلك.. هـل تدري أنـك بتصرفـك هذا تعذب نفسـك.. وتجلد ذاتك..

وقُـلْ مثل ذلك لو: تزينـت وذهبت خاطباً.. فمرت بك سـيارة وأنت خارج من البيت.. ورشـت عليك من ماء كان مجتمعاً على الأرض.. هل سـتعذب نفسـك فتصرخ وتزعق بالسيارة وركابها.. وهي قد ولتلك ظهرها؟

وكذلك .. لا داعي لأن نتذكر دائماً الآلام التي مستنا في حياتنا..

محمـد ﷺ مـرت به لحظـات حزينة في حياتـه.. حتي جلس يومـاً مع زوجه الحنون (عائشة) - رضي الله عنها -.. في لحظة ساكنة.. فسألته:

➤ هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم أحد؟

مرَّت تلك المعركة في ذاكرة النبي ﷺ .. آآآه .. ما أقسى ذلك اليوم..

يـوم قُتل عمه حمـزة وهو من أحب النـاس إليه.. يوم وقـف ينظر إلى عمه وقرة عينه.. وقد جُدع أنفُه.. وقُطِعت أذناه.. وشُقَّ بطنه.. ومُزِّق جسده..

يوم كُسِرت أسنانُه ﷺ.. وجُرِح وجهُه.. وسالت منه الدماء..

يوم قُتِل أصحابُه بين يديه.. يوم عاد ﷺ إلى المدينة.. وقد نقص سبعون من أصحابه.. فرأى النساء الأرامل والأطفال اليتامى.. يبحثون عن أحبابهم وآبائهم.. آآآه.. فعلاً.. كان ذلك اليوم قاسياً..

كانت (عائشة) تنتظر الجواب.. فقال ﷺ:

➤ ما لقيت من قومك كان أشد منه.. يوم العقبة.. إذ عرضت نفسي..

ثم ذكر لها قصة استنصاره بأهل الطائف.. وتكذيبهم له.. ورمي سفهائهم له بالحجارة حتى أدموا قدميه..[1]

ومع وجود هذه الآلام في تاريخ حياته ﷺ.. إلا أنه كان لا يسمح لها أن تنغص عليه استمتاعه بالحياة.. لا تستحق الالتفاف إليها.. وقد مضت آلامها وبقيت حسناتها..

إذن لا تقتل نفسك بالهمّ.. وكذلك لا تقتل الناس بالهمّ واللوم.. نحن أحياناً نتعامل مع بعض المشاكل بأساليب هي في الحقيقة ليست حلاً لها..

كان (الأحنف بن قيس) سيد بني تميم.. ولم يكن ساد قومه بقوة جسد.. ولا كثرة مال.. ولا ارتفاع نسب.. وإنما سادهم بالحلم والعقل.. حقد عليه قوم.. فأقبلوا إلى سفيه من سفهائهم وقالوا له: هذه ألف درهم على أن تذهب إلى سيد بني تميم.. (الأحنف بن قيس).. فتلطمه على وجهه..

مضى السفيه.. فإذا (الأحنف) جالس مع رجال .. محتبياً بكل رزانة.. قد ضم ركبتيه إلى صدره.. وجعل يحدث قومه.. اقترب السفيه منه.. ودنا.. ودنا.. فلما وقف عنده.. مدَّ (الأحنف) إليه رأسه ظاناً أنه سيُسر إليه بشيء.. فإذا بالسفيه يرفع يده ويلطم (الاحنف) على وجهه لطمة كادت تمزق خده!! نظر (الأحنف) إليه.. ولم يحلّ حبوته..

(١) تقدمت القصة كاملة.

- بل قال بكل هدووووء: لماذا لطمتني؟!!
- قال: قوم أعطوني ألف درهم على أن ألطم سيد بني تميم..
- فقال (الأحنف): .. آآآه ما صنعت شيئاً.. لست سيد بني تميم..!
- قال: عجباً!! فأين سيد بني تميم..؟
- قال: هل ترى ذاك الرجل الجالس وحده.. وسيفه بجانبه؟

وأشار إلى رجل اسمه (حارثة بن قدامة).. امتلأ غضباً وغيظاً.. لو قُسِّم غضبه على أمة لكفاهم..

- قال: نعم أراه.. الجالس هناك؟!
- قال: نعم.. فاذهب والطمه لطمة.. فذاك سيد بني تميم..

مضى الرجل إليه: واقترب من (حارثة).. فإذا عينا (حارثة) تلتمع شرراً.. وقف السفيه عليه.. ورفع يده ولطمه على وجهه.. فما كادت يده تفارق خده حتى التقط (حارثة) سيفه.. وقطع يده..!!

وقديماً قيل: الفائز هو الذي يضحك في النهاية!!

مشاكل ليس لها حل

كم ترى من الناس غاضباً وهو يقود سيارته .. وربما ضرب بيديه على مقودها.. وردد : أووووه دائماً زحمة.. زحمة!! أو قد تراه يمشي في الطريق.. ولا يحتمل أن يكلمه أحد.. بل متضايق أشد الضيق.. ويردد: أووووف حررر شدييييد..!! وربما كنت زميلاً له في مكتب واحد.. تبتلى برؤيته كل يوم.. ويشغلك كلما جلس.. ياخي العمل كثييير.. أووووه إلى متى ما يزيدون رواتبنا.. ويدخل عابساً.. ويخرج ساخطاً.. وربما أكثر التشكي من آلام بدنه.. أو إعاقة ولده..

باختصار: لابد أن نقتنع جميعاً أننا تواجهنا في حياتنا مشاكل ليس لها حل.. فلابد أن نتعامل معها بأريحية..

قال: السماء كئيبة وتجهما ... قلت: ابتسم، يكفي التجهم في السما!
قال: الصبا ولّى! فقلت له: ابتسم ... لن يرجع الأسف الصبا المتصرما
قال: التي كانت سمائي في الهوى ... صارت لنفسي في الغرام جهنما
خانت عهودي بعدما ملكتها ... قلبي فكيف أطيق أن أتبسما
قلت: ابتسم واطرب فلو قارنتها ... قضيت عمرك كله متألما
قال: العدى حولي علت صيحاتهم ... أأُسَرُّ والأعداء حولي في الحمى؟
قلت: ابتسم، لم يطلبوك بذمهم ... لو لم تكن منهم أجلّ وأعظما!
قال: الليالي جرعتني علقماً ... قلت: ابتسم ولئن جُرعت العلقما
فلعل غيرك إن رآك مُرَنِّما ... طرح الكآبة خلفه وترنما
أتراك تغنم بالترنم درهماً ... أم أنت تخسر بالبشاشة مغنماً
فاضحك فإن الشهب تضحك والدجى ... متلاطم ولذا نحب الأنجما

نعم استمتع بحياتك..

انتبه أن تكون ظروفك مؤثرة على سلوكك.. في عملك.. أولادك.. زملائك.. فما ذنبهم أن يتعذبوا بأمور ليس هم طرفاً فيها.. ولا يملكون حلها؟ لا تجعلهم إذا رأوك .. أو ذكروك ذكروا معك الهم والحزن..

لذا نهى ﷺ عن النياحة على الميت.. والصراخ.. وشق الجيب.. وحلق الشعر.. و... لماذا؟

لأن التعامل مع الموت يكون بتغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه.. والدعاء له.. اما الصراخ والعويل فلا ينفع شيئاً.. سوى أنه يقلب متعة الحياة إلى أحزان..

مشى (المعافى بن سليمان) مع صاحب له.. فالتفت إليه صاحبه عابساً وقال:

- ما أشد البرد اليوم؟
- فقال (المعافى): أستدفأت الآن؟
- قال: لا..
- قال: فماذا استفدت من الذم؟ لو سبّحت لكان خيراً لك..

ما أحسن فهمه وأحكمه..

لا تقتل نفسك بالهمّ

كان (سعد) أحد طلابي في الجامعة.. غاب أسبوعاً كاملاً.. ثم لقيته..

- فسألته: سلامات.. سعد..؟
- قال: لا شيء.. كنت مشغولاً قليلاً.. كان الحزن واضحاً عليه..
- قلت: ما الخبر؟
- قال: كان ولدي مريضاً.. عنده تليف في الكبد.. وأصابه قبل أيام تسمم في الدم.. وتفاجأت أمس أن التسمم تسلل إلى الدماغ.
- قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.. اصبر.. واسأل الله أن يشفيه.. وإن قضى الله عليه بشيء.. فاسأل الله أن يجعله شافعاً لك يوم القيامة..
- قال: شافع؟ يا شيخ.. الولد ليس صغيراً..
- قلت: كم عمره؟
- قال: سبع عشرة سنة..
- قلت: أسأل الله أن يشفيه.. ويبارك لك في إخوانه..
- فخفض رأسه وقال: يا شيخ.. ليس له إخوان.. لم أُرزق بغير هذا الولد.. وقد أصابه ما ترى.. كان حاله مؤثراً..
- لكني تجلّدتُ وقلت له: (سعد).. بكل اختصار.. لا تقتل نفسك بالهمّ.. لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. ثم خففت عنه مصابه وذهبت..

نعم لا تقتل نفسك بالهم.. فالهم لا يخفف المصيبة..

أذكر أني قبل فترة.. ذهبت إلى المدينة النبوية.. التقيت بخالد..

- قال لي: ما رأيك أن نزور الدكتور: (عبدالله)..
- قلت: لماذا.. ما الخبر؟
- قال: نعزيه..
- قلت: نعزيه؟!!
- قال: نعم.. ذهب ولده الكبير بالعائلة كلها لحضور حفل عرس في مدينة مجاورة.. وبقي هو في المدينة لارتباطه بالجامعة.. في أثناء عودتهم وقع لهم حادث مروع.. فماتوا جميعاً.. إحدى عشرة نفساً!!

كان الدكتور رجلاً صالحاً قد جاوز الخمسين.. لكنه على كل حال.. بشر.. له مشاعر وأحاسيس.. في صدره قلب.. وله عينان تبكيان .. ونفس تفرح و تحزن ... وتلقى الخبر الفزع .. صلى عليهم ثم وسّدهم في التراب بيديه.. إحدى عشرة نفساً..

صار يطوف في بيته حيران.. يمر بألعاب متناثرة.. قد مضى عليها أيام لم تحرك.. لأن خلود وسارة اللتين كانتا تلعبان بها.. ماتتا.. يأوي إلى فراشه.. لم يرتب.. لأن أم صالح.. ماتت.. يمر بدراجة ياسر.. لم تتحرك.. لأن الذي كان يقودها.. مااات.. يدخل غرف ابنته الكبرى.. يرى حقائب عرسها مصفوفة.. وملابسها مفروشة على سريرها.. ماتت.. وهي ترتب ألوانها وتنسقها..

سبحان من صبّره.. وثبّت قلبه..

كان الضيوف يأتون.. معهم قهوتهم.. لأنه لا أحد عنده يخدم أويعين.. العجيب أنك إذا رأيت الرجل في العزاء.. حسبت أنه أحد المعزِّين.. وأن المُصاب غيره.. كان يردد.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

لله ما أخذ وله ما أعطى.. وكل شيء عنده بأجل مسمى.. وهذا هو قمة العقل.. فلو لم يفعل ذلك.. لمات هماً..

أعرف أحد الناس أراه دائماً سعيداً.. وإذا تأملت حاله وجدت: وظيفته متواضعة.. بيته مستأجر.. ضيّق.. سيارته قديمة.. أولاده كثيرون.. ومع ذلك كان دائم الابتسامة.. محبوباً.. يعيش حياته..

صحيح.. لا تقتل نفسك بالهم.. ولا تكثر التشكي.. فيملّك الناس.. كرجل عنده ولد معوّق.. فيشغلك كلما رآك.. ولدي مريض.. ضائق صدري.. مسكين ولدي.. فتجد أنك تمّل منه وتود لو تصرخ به قائلاً: يا أخي خلاص فهمنا..

أو امرأة مع زوجها دائماً تردد عليه: بيتنا قديم.. سيارتنا متهالكة.. ثيابي ليست على الموضة..

ما الفائدة من هذا التشكي إلا بتجديد المواجع..

أفنيت يا مسكين عمرك بالتأوه والحزن وظللت مكتوف اليدين تقول حاربني الزمن

إن لم تقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن؟

ارضَ بما قسم اللّه لك

كنت في رحلة إلى أحد البلدان لإلقاء عدد من المحاضرات.. كان ذلك البلد مشهوراً بوجود مستشفى كبير للأمراض العقلية.. أو كما يسميه الناس (مستشفى المجانين).. ألقيت محاضرتين صباحاً.. وخرجت وقد بقي على أذان الظهر ساعة.. كان معي (عبدالعزيز).. رجل من أبرز الدعاة.. التفتُّ إليه ونحن في السيارة..

- وقلت: (عبدالعزيز).. هناك مكان أود أن أذهب إليه ما دام في الوقت مستع..
- قال: أين؟ صاحبك الشيخ (عبدالله).. مسافر.. والدكتور أحمد اتصلت به ولم يجب.. أو تريد أن نمر المكتبة التراثية.. أو...
- قلت: كلا.. بل: مستشفى الأمراض العقلية..
- قال: المجانين!!
- قلت: المجانين..
- فضحك وقال مازحاً: لماذا.. تريد أن تتأكد من عقلك..
- قلت: لا.. ولكن نستفيد.. نعتبر.. نعرف نعمة الله علينا..

سكت (عبدالعزيز) يفكر في حالهم.. شعرت أنه حزين.. كان (عبدالعزيز) عاطفياً أكثر من اللازم.. أخذني بسيارته إلى هناك.. أقبلنا على مبنى كالمغارة.. الأشجار تحيط به من كل جانب.. كانت الكآبة ظاهرة عليه..

قابلنا أحد الأطباء.. رحب بنا ثم أخذنا في جولة في المستشفى.. أخذ الطبيب يحدثنا عن مآسيهم.. ثم قال: وليس الخبر كالمعاينة.. دلف بنا إلى أحد الممرات.. سمعت أصواتاً هنا وهناك.. كانت غرف المرضى موزعة على جانبي الممر..

مررنا بغرفة عن يميننا.. نظرت داخلها فإذا أكثر من عشرة أسِرّة فارغة.. إلا واحداً منها قد انبطح عليه رجل ينتفض بيديه ورجليه.. التفتُّ إلى الطبيب وسألته:

- ما هذا!!

- قال: هذا مجنون.. ويصاب بنوبات صرع.. تصيبه كل خمس أو ست ساعات..

- قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.. منذ متى وهو على هذا الحال؟

- قال: منذ أكثر من عشر سنوات..

كتمت عبرة في نفسي.. ومضيت ساكتاً..

بعد خطوات مشيناها.. مررنا على غرفة أخرى.. بابها مغلق.. وفي الباب فتحة يطل من خلالها رجل من الغرفة.. ويشير لنا إشارات غير مفهومة.. حاولت أن أسرق النظر داخل الغرفة.. فإذا جدرانها وأرضها باللون البني..

- سألت الطبيب: ما هذا؟!!

- قال: مجنون!!

- شعرت أنه يسخر من سؤالي.. فقلت: أدري أنه مجنون.. لو كان عاقلاً لما رأيناه هنا.. لكن ما قصته؟

- فقال: هذا الرجل إذا رأى جداراً.. ثارت أعصابه وأقبل يضربه بيده.. وتارة يضربه برجله.. وأحياناً برأسه.. فيوماً تتكسر أصابعه.. ويوماً تكسر رجله.. ويوماً يشج رأسه.. ويوماً..

ثم خفض الطبيب رأسه حزيناً.. وقال: ولم نستطع علاجه.. فحبسناه في غرفة كما ترى.. جدرانها وأرضها مبطنة بالإسفنج.. فيضرب كما يشاء..

ثم سكت الطبيب.. ومضى أمامنا ماشياً.. أما أنا وصاحبي (عبدالعزيز).. فظللنا واقفين نتمتم: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به..

ثم مضينا نسير بين غُرف المرضى.. حتى مررنا على غرفة ليس فيها أَسِرَّة.. وإنما فيها أكثر من ثلاثين رجلاً.. كل واحد منهم على حال.. هذا يؤذن.. وهذا يغني.. وهذا يتلفت.. وهذا يرقص.. وإذا من بينهم ثلاثة قد أُجلسوا على كراسي.. وربطت أيديهم وأرجلهم.. وهم يتلفتون حولهم.. ويحاولون التفلت فلا يستطيعون.. تعجبت وسألت الطبيب:

- من هؤلاء؟ ولماذا ربطتموهم دون الباقين؟
- فقال: هؤلاء إذا رأوا شيئاً أمامهم اعتدوا عليه.. يكسرون النوافذ.. والمكيفات.. والأبواب.. لذلك نحن نربطهم على هذا الحال.. من الصباح إلى المساء..
- قلت وأنا أدافع عبرتي: منذ متى وهم على هذا الحال؟
- قال: هذا منذ عشر سنوات.. وهذا منذ سبع.. وهذا جديد.. لم يمض له إلا خمس سنين!!

خرجت من غرفتهم.. وأنا أتفكر في حالهم.. وأحمد الله الذي عافاني مما ابتلاهم..

- سألته: أين باب الخروج من المستشفى؟
- قال: بقي غرفة واحدة.. لعل فيها عبرة جديدة.. تعال..

وأخذ بيدي إلى غرفة كبيرة.. فتح الباب ودخل.. وجرني معه.. كان ما في الغرفة شبيهاً بما رأيته في غرفة سابقة.. مجموعة من المرضى.. كل منهم على حال.. راقص.. ونائم.. و.. و.. عجباً ماذا أرى؟؟

رجل جاوز عمره الخمسين.. اشتعل رأسه شيباً.. وجلس على الأرض القرفصاء.. قد جمع جسمه بعضه على بعض.. ينظر إلينا بعينين زائغتين.. يتلفت بفزع.. كل هذا طبيعي.. لكن الشيء الغريب الذي جعلني أفزع.. بل أثور.. هو أن الرجل كان عارياً تماماً ليس عليه من اللباس ولا ما يستر العورة المغلظة!! تغير وجهي.. وامتقع لوني.. والتفتُّ إلى الطبيب فوراً. فلما رأى حمرة عيني..

- قال لي: هدىء من غضبك.. سأشرح لك حاله.. هذا الرجل كلما ألبسناه ثوباً عضه بأسنانه وقطعه.. وحاول بلعه.. وقد نُلْبسه في اليوم الواحد أكثر من عشرة ثياب.. وكلها على مثل هذا الحال.. لا يتحمل أي قطعة قماش على جسده.. فتركناه هكذا صيفاً وشتاءاً.. والذين حوله مجانين لا يعقلون حاله..

خرجت من هذه الغرفة.. ولم أستطع أن أتحمل أكثر..

- قلت للطبيب: دلني على الباب.. للخروج..
- قال: بقي بعض الأقسام..
- قلت: يكفي ما رأيناه..

مشى الطبيب ومشيت بجانبه وجعل يمر في طريقه بغرف المرضى.. ونحن ساكتون.. وفجأة التفت إليّ وكأنه تذكر شيئاً نسيه..

- وقال: يا شيخ.. هناك رجل من كبار التجار.. يملك مئات الملايين.. أصابته لوثة عقلية فأتى به أولاده وألقوه هنا منذ سنتين.. وهنا رجل آخر كان مهندساً في شركة.. وثالث كان...

ومضى الطبيب يحدثني بأقوام ذلوا بعد عز.. وآخرين افتقروا بعد غنى.. و...

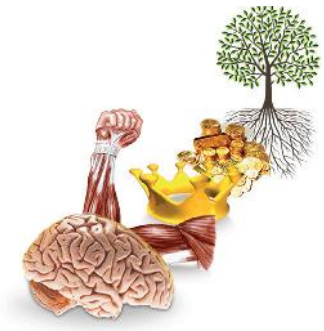

أخذت أمشي بين غرف المرضى متفكراً.. سبحان من قسم الأرزاق بين عباده.. يعطي من يشاء.. ويمنع من يشاء..

قد يرزق الله الرجل مالاً وحسباً ونسباً ومنصباً.. لكنه يأخذ منه العقل.. فتجده من أكثر الناس مالاً.. وأقواهم جسداً.. لكنه مسجون في مستشفى المجانين..

وقد يرزق آخر حسباً رفيعاً.. ومالاً وفيراً.. وعقلاً كبيراً.. لكنه يسلب منه الصحة.. فتجده مقعداً على سريره.. عشرين أو ثلاثين سنة.. ما أغنى عنه ماله وحسبه..!!

ومن الناس من يؤتيه الله صحة وقوة وعقلاً.. لكنه يمنعه المال فتراه يشتغل حَمّال أمتعة في سوق أو تراه مُعدماً فقيراً يتنقل بين الحرف المتواضعة لا يكاد يجد ما يسد به رمقه..

ومن الناس من يؤتيه.. ويحرمه.. وربك يخلق ما يشاء ويختار.. ما كان لهم الخيرة..

فكان حَرِيّاً بكل مبُتلى أن يعرف هدايا الله إليه قبل أن يعُدَّ مصائبه عليه.. فإن حرمك المال فقد أعطاك الصحة.. وإن حرمك منها.. فقد أعطاك العقل.. فإن فاتك.. فقد أعطاك الإسلام..

هنيئاً لك أن تعيش عليه وتموت عليه.. فقل بملء فيك الآن بأعلى صوتك: الحمد لله.. وكذلك كان الصحابة الكرام - رضي الله عنهم -..

بعث رسول الله ﷺ.. (عمرو بن العاص) رضي الله عنه جهة الشام.. في غزوة ذات السلاسل.. فلما صار إلى هناك رأى كثرة عدوه.. فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده.. فبعث إليه ﷺ (أبا عبيدة بن الجراح).. أميراً على مدد.. فيه المهاجرون الأولون.. وفيهم (أبوبكر) و(عمر).. وقال ﷺ لأبي عبيدة حين وجهه: لا تختلفا..

فخرج (أبوعبيدة).. حتى إذا وصل إلى (عمرو بن العاص) قال له (عمرو):

- إنما جئت مدداً لي.. وأنا أمير الجيش..
- فقال له (أبوعبيدة): لا ولكن على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه..

أي: أنـا أمير على أصحابـي الذين قدموا معي.. وأنت أمـير على أصحابك.. وكان (أبوعبيدة) رجلاً ليناً سهلاً.. هيناً عليه أمر الدنيا..

- فقال (عمرو): بل أنت مددي..
- فقـال له (أبوعبيدة): يا (عمرو) إن رسـول الله ﷺ.. قد قـال لي: لا تختلفا.. وإنك إن عصيتني أطعتك..
- فقال عمرو: فإني أمير عليك.. وإنما أنت مدد لي..

فوافق (أبوعبيدة) على ذلك.. فتقدم.. (عمرو بن العاص) رضي الله عنه فصلى بالناس.. وبعـد الغـزوة.. كان أول من وصل المدينة.. (عوف بـن مالك) رضي الله عنه.. فمضى إلى رسـول ﷺ.. فلمـا رآه.. قال له ﷺ: أخبرني.. فأخبره عـن الغزوة.. وما كان بين (أبـي عبيدة) و(عمرو بن العاص).. فقال ﷺ: يرحم الله أبا (عبيدة) بين الجراح.. نعم.. يرحم الله (أبا عبيدة) رضي الله عنه..